الوضع اللغوي في الجزائر بين الازدواج والتعدد

د. جيلالي بن يشو
جامعة مستغانم

مقدمة:

يعرض علينا المشهد اللغوي الجزائري قضايا وإشكاليات عديدة ومتداخلة تتعلق في عمومها بالممارسات اللغوية ومظاهر التواصل اللغوي الاجتماعي، وهي من إفرازات وضعية التعدّد والتنوع اللغويين، فالمحيط الاجتماعي الجزائري يعرف لغات ولهجات متعددة (اللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة الرسمية، واللهجات العربية العامية الدارجة بمختلف أنواعها، واللغة الأمازيغية، أضف إلى كل ذلك اللغات الأجنبية كالفرنسية وغيرها من اللغات الأخرى). هذا التنوع والتعدد اللغويان تتجلى مظاهرهما في العديد من الفضاءات المكوّنة للمحيط الاجتماعي الجزائري كالأسرة والشارع والإدارة والتجارة، والاتصال، والإشهار وما إلى ذلك.

إنّ مشكلتنا اللغوية – كما يقول أحد اللسانيين– هي مشكلة كل شعب مزدوج اللغة، فإننا نفكر ونتكلم و نغنّي ونُتَمْتِم في صلواتنا، ونُنَاغِي أطفالنا، ونهمس في آذان من نحبهم، ونتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم بلغة محكية سلسة، سيالة تتميز بفقدان الإعراب، وبغنى الحروف المصوّتة، وتتميز كذلك بمرونة في التركيب، وبسهولة في التعبير، ولا تتطلب منا جهدا، ولكن في حياتنا الرسمية – في التعلّم وفي القراءة والكتابة – علينا أن نتلبّس شخصية لغوية ثانية، فنتكلم لغة معربة شديدة الإحكام في التركيب والتعبير [1]، بل إننا« نجد كتابا كبارا معاصرين من العرب وغير العرب لا يتحرجون في استعمال خطابات لهجية عامية أو محلية على أفواه أبطال إنتاجاتهم في مختلف الأجناس الأدبية»[2] ، فسلطان العامية له السيطرة على الناطقين بالفصحى حتى المتخصصين منهم، ذلك أن العادات اللغوية المخزونة تخرج بطريقة لاواعية على غير إرادة من صاحبها [3].

- تحديد مصطلحات الدراسة:

- اللهجة Dialecte : أو العامية، وهي التي تستخدم في الشؤون العادية، و التي يجري بها الحديث اليومي، فهي "عبارة عن مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، و يشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة " [4]. أو هي :" نمط من الاستخدام اللغوي داخل اللغة الواحدة، يتميز عن غيره من الأنماط داخل نفس اللغة بجملة من الخصائص اللغوية الخاصة، ويشترك معها في جملة من الخصائص العامّة "[5]. مما يؤكد أن العلاقة بين اللهجة واللغة هي علاقة عموم وخصوص ،حيث تشمل اللغة الواحدة عدة لهجات متباينة في خصائصها اللغوية، مع اشتراكها في صفات لغوية أخرى. [6]ويتّخذ مصطلح العامية أسماء عدة عند بعض اللغويين المحدثين.[7]

أمّا عن المعايير التي تحدد إن كانت هذه اللغة لهجة أو فصحى، فيرجع بالدرجة الأولى إلى موقف أفراد الجماعة اللغوية من هذه اللغة أو تلك، وكيفية استخدامها وتوظيفها في مجالات مختلفة، فَ " إن أي نظام لغوي يتكون من أصوات تكون كلمات تؤلف جملا لأداء معنى، ومن هذا الجانب نجد أية لغة وأية لهجة داخلة في هذا الإطار. والشيء الأساسي الذي يجعل نظاما لغويا ما يصنف باعتباره لهجة أو على أنه لغة فصيحة هو موقف أبناء الجماعة اللغوية منه، ومعنى هذا أنه ليس في بنية اللهجة أو اللغة ما يحتّم تصنيفها بالضرورة هذا التصنيف، ولكن مجالات الاستخدام عند أبناء الجماعة اللغوية هي التي تفرض هذا التصنيف، فالنظام اللغوي الذي يستخدم في مجالات الثقافة والعلم و الأدب الرفيع هو ما يصنف اجتماعيا بأنه فصيح، والنظام اللغوي الذي يقتصر استخدامه على مجالات الحياة اليومية هو بالضرورة ما يصنف اجتماعيا بأنه لهجة أو بأنّه عامية".[8]

2- التعدد اللغوي:

تتفق المعاجم اللسانية على أن التعدد اللغوي عبارة عن استعمال لغات عديدة داخل مؤسسة اجتماعية معينة، وفي القاموس: نصف متكلما ما بأنه شخص متعدد اللغات إذا كان يستعمل داخل جماعة معينة ولأغراض تواصلية مجموعة من اللغات. وهو ظاهرة طبيعية في دول العالم قاطبة.

من الصعب أن تجد دولة أو مجتمعاً يتحدث بلغة واحدة، فالتعدد اللغوي أمر واقع، ولا ضير أن يتخذ التعدد اللغوي مسلك التطعيم وانفتاح الثقافة الوطنية على الثقافات الأجنبية لتوسيع دائرة التفكير اللغوي بما يخدم اللغة الوطنية، لقد أكّد الإسلام على قيمة التعدد اللغوي حينما ربط القرآن الكريم بين اختلاف الألسنة ومعرفة إعجاز الله في الخلق، فهذا الاختلاف آية من آيات الله وليس هناك من مبرر علمي ولا خلقي لتفضيل لغة على لغة. يقول ابن حزم: "ولا ندري أي لغة هي التي وقف آدم عليها أولاً، إلا أننا نقطع على أنها أتم اللغات كلها... وقد قال قوم هي السريانية، وقال قوم هي اليونانية، وقال قوم هي العربية والله أعلم، إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها... وإذ تيقنا ذلك فالسريانية أصل للعربية وللعبرانية معاً، والمستفيض أن أول من تكلم بهذه العربية إسماعيل –عليه السلام– فهي لغة ولده والعبرانية لغة إسحاق وهي لغة ولده، والسريانية بلا شك هي لغة إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم".[9] وقد مورس هذا النموذج في المجتمع الإسلامي في أزهى عصور الحضارة الإسلامية، ولم تشك العربية ضيقًا و لا تشويشًا ولا عجزًا ولا عزلة بل ظلت تلك اللغات خادمة للغة العربية معلنة انقيادها عن طواعية.

فالتعددية اللغوية إن برزت بصورة طبيعية نابعة من متطلبات المجتمع المتطلع إلى المعرفة الإنسانية، فهي ظاهرة صحية، وأما إن سلك التعدد اللغوي مسلكًا إيديولوجيًا سياسيًا تحت أقنعة مختلفة، ظاهرها الرحمة، وباطنها من قبله العذاب، فذلك هو المسخ الثقافي و الحضاري، والاستعمار في شكله الجديد.[10]

3- بين الازدواجية اللسانية والثنائية اللغوية:

الازدواجية اللسانية: La diglossie " ترجمة للمصطلح الانجليزي "**Diglossia**". يُعتَقد أن أول من تحدّث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني "كارل كرمباخر" **Krumbacher 1902**" في كتاب له صدر عام **1902**، تطرَّق فيه إلى طبيعة هذه الظاهرة وأصولها وتطورها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص إلى نتائج تفسر كثيراً من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي، إذ اقترح على اليونانيين ترك "ازدواجيتهم الشرقية" واللحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية، وكذلك دعا العرب إلى ترك فصيح لسانهم وتبنّي إحدى اللهجات – مفضلاً المصرية – لغة قومية.[11]

لكن الرأي العام الشائع في أدب هذه الظاهرة اللغوية هو أن العالم الفرنسي وليم مارسيه (**William 1930 Marcais**) أول من نحت الاصطلاح بالفرنسية **« La diglossie »** وعرَّفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام **1930** بقوله: "هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث".[12]

كما يعدّ اللغوي تشارلز فرغيسون **Charles Ferguson** من بين اللسانيين الذين بحثوا في هذه الظاهرة اللغوية عندما نشر بحثه عام **1959** معرّفا إيّاها قائلا: "وضع مستقر نسبيا توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الرئيسية للغة التي قد تشتمل على لهجة واحدة أو لهجات إقليمية متعددة لغة تختلف عنها، وهي مقنّنة بشكل متقن إذ غالبا ما تكون قواعدها أكثر تعقيدا من قواعد اللهجات، وهذه اللغة بمثابة نوع راق يستخدم وسيلة للتعبير عن أدب محترم، سواء أكان هذا الأدب ينتمي الى جماعة في عصر سابق، أم إلى جماعة حضارية أخرى،

ويتمّ تعلّم هذه اللغة الراقية عن طريق التربية الرسمية، ولكن لا يستخدمها أيّ قطاع من الجماعة في أحاديته الاعتيادية".[13]

لقد اختلف اللسانيون حول مفهوم مصطلح " **الازدواج اللغوي**" فبعضهم يطلقه على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أي لغة للحديث وأخرى للعلم والأدب والثقافة والفكر، وبعضهم يطلقه على وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد أو جماعة ما في آن واحد.

يقابل مصطلح الازدواجية في اللغة الفرنسية " **Bilinguisme** "،[14] فقد تحدّث "مالمبرج **Malamberg** عن ظاهرة ثنائية اللغة فقال:" لقد استخدمنا في كلّ ملاحظاتنا عن الاتصالات اللسانية مفهوم ازدواجية اللغة **Bilinguisme** وفي الواقع إنّ كلّ تداخل بين عدد من الأنظمة يفترض وجود شيء من الازدواجية اللغوية".[15] وقد أورد منذر عيّاشي تعريفا للثنائية اللغوية قائلا:" كلّ فرد يتدبر أمره بشكل ملائم عبر لغة ثانية يعتبر مزدوج اللغة، يوجد إذن تماثل بين ازدواجية اللغة والمعرفة بلغة أو بعدّة لغات أجنبية...ومع هذا التعريف تصبح ظاهرة ازدواجية اللغة منتشرة، ويصبح عدد من ازدوجت لغاتهم كبيرا"،[16] ويشترط أن يكون مزدوج اللغة مسيطرا سيطرة تامّة على اللغتين، وأن يتصرف بهما بحرّية، وأن يقبله المحيط مهما كانت اللغة، فالمقصود من ازدواجية اللغة من هذا المنظور مرهون بوجود لغتين متميزتين كالفرنسية والألمانية مثلا.[17]

ويقصد بـ **"ثنائية اللغة Le bilinguisme"** وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما، أو جماعة ما، في آن واحد،[18] أوهي الحالة اللغوية التي يستخدم فيها المتكلمون بالتناوب وحسب البيئة والظروف اللغوية لغتين مختلفتين، فهي الوضع اللغوي لشخص ما أو لجماعة بشرية معيّنة تتقن لغتين، وذلك من دون أن تكون لدى أفرادها قدرة كلامية مميزة في لغة أكثر ممّا في اللغة الأخرى. [19]

يرفض بعض الباحثين استعمال مصطلح " **الازدواجية** " الذي يستخدمه الكثير من اللغويين للدلالة على شكلي اللغة العربية: الفصحى والعامية، ذلك أن العامية والفصحى فصيلتان من لغة واحدة، والفرق بينهما بالتالي فرق فرعي، لا جذري، وعليه فالازدواجية الحق لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين، كما بين الفرنسية والعربية، أو الألمانية و التركية . أما أن يكون للعربي لغتان إحداهما عامية، والأخرى عربية فصيحة، فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه، إنه بالأحرى ضرب من"الثنائية اللغوية**"Diglossie**"،[20] فيرون أن أمر الفصحى والعامية نوع من الثنائية، وذلك لأنهما فصيلتان من لغة واحدة في حين أن الازدواجية لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين كالعربية والفرنسية.

يفهم من هذا أنّ التحديد الدقيق للمصطلحين إلى الآن غير واضح عند الكثير من الباحثين، وأنّ التداخل بين المعنيين حاصل عند أغلبهم، ونفضّل إطلاق مصطلح الازدواج اللغوي على المفهوم الأول لأنه أشيع بين الباحثين ولأن المعجم يدعم هذا، فقد ورد في معجم اللسانيات الحديثة أنّ هذا المصطلح يعني وجود أكثر من مستويين للغة، جنبا إلى جنب في مجتمع من المجتمعات بحيث يستخدم كل مستوى من مستويات اللغة في أغراض معينة ويسمى الوضع اللغوي في هذه الحالة " الازدواجية اللغوية " ويكون أحد هذه المستويات اللغوية عادة أعلى مركزا، ويسمى باللغة المعيارية أو الفصحى"**Standard Language**"، وتستعمل في المكاتبات الرسمية والتعليم والعبادة، أما المستوى الآخر فهو عادة يعتبر أقل رتبة، ويستعمله أفراد الأسرة في حياتهم اليومية في معاملاتهم الاجتماعية في مواقف الحوار المختلفة مثل موقف البيع والشراء و غير ذلك، ويسمى باللغة الدارجة أو العامية **Colloquial Language**.[21]

أما كمال بشر فيعرفها قائلا: « الازدواجية تعني وجود نمطين من اللغة يسيران جنبا إلى جنب في المجتمع المعين يتمثل النمط الأول فيما أشرنا إليه سابقا وأطلقنا عليه المصطلح: "اللغة النموذجية" والثاني ما جرى العرف

على تسميته – على ضرب من التعميم– " اللغة المحكية"، وقد يسمى الأول أحيانا " اللغة الرسمية" "**Formal**" والثاني "اللغة غير الرسمية" **Informal** ».[22]

هذه الازدواجية التي نلاحظها في حياتنا اليومية بين الفصحى والعامية هي ازدواجية طبيعية فرضها تكوين الإنسان ذاته، وهي على درجات متفاوتة في كل لغات العالم، وظاهرة تكاد تكون موجودة في أغلب اللغات الحية، باعتبار أن لكل أمة لغتين: واحدة يتحدث بها العامة في مخاطباتهم، ومعاملاتهم، وأخرى يتحلى بها الخاصة، وهي لغة التأليف والتدوين. ولا يظن أمرؤ أننا الشعب الوحيد الذي يعاني هذه المشكلة اللغوية، فإن هناك أمما حية معاصرة، وأمما من الماضي البعيد عاشت هذه الوضعية، وعانت ما نعانيه مثل: الإغريق والرومان والهنود، وغيرهم كثير.[23]

إن كثرة العاميات وتعددها في البيئة اللغوية المعينة أمر طبيعي ومعروف، يشهد على ذلك التاريخ الإنساني القديم منه والحديث على السواء، فهناك في الوطن الواحد عشرات اللهجات العامية التي ينبئ عنها ويؤكد وجودها اختلاف الألسن، وتنوع طرق الأداء، ففي البلد الواحد تنتشر في جنباته لهجات محلية لها سماتها وصفاتها الخاصة،[24] فاللهجات العامية تسير مع الفصحى جنبا إلى جنب، وأن وجودها أمر تحتمه الضرورة الاجتماعية، وما تقتضيه من تفاوت في مستوى الاستعمال، وحاجاته تبعا لحاجة الناطقين أنفسهم،[25] ووجودها ليس مُضِرّاً في ذاته، فهو عضوي، يُعبِّر عن جانب من جوانب الكائن الناطق.[26]

تبقى مسألة اللغة العربية الفصحى، ولهجاتها العامية في صلب اهتمامات كل الناطقين بها، فإنْ كانت مطروحة عند الدارسين كظاهرة لغوية جديرة بأَنْ تُبْحَث، رغم تباين المواقف فيها، فهي مطروحة عند كل متحدث باللغة العربية، ذلك لأنه في انتقال إلزامي ودائم بين الفصحى والعامية، هذا التلازم يكون أيضا في الحياة العامة للأفراد، حيث قد تتنوع بين الطبقات، كما قد يلزم على الفرد المثقف أن يستعمل الفصحى في وسطه العلمي بين النخبة المثقفة، وفي المحافل الرسمية، في حين أنه عندما ينزل إلى عامة الناس يضطر إلى تغيير أسلوب التواصل فيستعمل بذلك العامية.[27]

الواقع اللغوي في الجزائر بين الازدواج والتعدد:

يتميز الوضع اللساني بالجزائر بتعدد لغوي قائم لا ينكره أحد، تتعايش ضمنه مستويات لغوية عديدة، حيث يعمل كلّ مستوى على ضمان موقعه ودوره ومكانته، وعلى احتكار مناطقه الجغرافية،إنه وضع ساهمت فيه عوامل عديدة مختلفة.

تتعايش في الجزائر مستويات لغوية عديدة، هي اللغة العربية الفصيحة ولهجاتها العامية، الأمازيغيات (القبائلية، الشاوية، الميزابية، الترقية)، إلى جانب اللغة الفرنسية.

وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات متميزة من التواصل اللغوي:

1- المستوى الرسمي: أي مستوى استخدام اللغة لأغراض دينية، حكومية، وتعليمية أي اللغة العربية الكلاسيكية (أي الفصحى) **la langue arabe classique**، وهي لغة القرآن الكريم والتراث العربي، والتي تستخدم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري، [28] والعربية العصرية الموحدة المستخدمة في وسائل الإعلام.

2- المستوى التواصلي: و هو مستوى استخدام اللغة للتواصل اليومي والتطبيق، أي اللهجات الأمازيغية (القبائلية، الميزابية، الشاوية، الترقية) واللهجات العربية العامية، وهي التي تستخدم في الشؤون العادية، والتي يجري بها الحديث اليومي.

اللغات الأمازيغية: تعد اللغات الأمازيغية اللغات الأم لسكان بني مازيغ، و بالتالي فقد سبقت هذه اللغة التواجد العربي على هذه الأرض، لها امتداد لساني معروف قديما في منطقة المغرب العربي بالإضافة إلى مصر،و النيجر، ومالي.

تتوزع الأمازيغيات في الجزائر إلى مجموعات كبيرة أهمها:

أ- **القبائلية:** و هي اللغة الأمازيغية الأكثر انتشارا وتعدُّ منطقة القبائل أهم منطقة ناطقة بالأمازيغية و تشمل منطقة القبائل: بجاية و تيزي وزو، مع وجود أقليات في المحور الممتد من سطيف إلى العاصمة و يضم سطيف، برج بوعريريج، البويرة، العاصمة.

ب- **الشاوية:** وهي اللغة التي يتحدث بها مجموعة من السكان الأمازيغ القاطنين بجبال الأوراس ضمن ولايات : باتنة ، أم بواقي، خنشلة، تبسة، والجهة الجنوبية من سطيف.

ت- **الترقية:** يتحدث بها الطوارق، وهم قبيلة كبيرة موزعة بين الجزائر، ليبيا، والنيجر.

ث- **الشلحية:** و هي لغة السكان المتمركزين في مناطق متفرقة كتيبازة، ومدن الشريط المحاذي للمغرب الأقصى كمغنية ، ولهم امتدادات عالية في المغرب.

ج- **الميزابية:** وهي اللغة التي يتحدث بها سكان بني ميزاب، المستوطنون في غرداية والمدن الاباضية الأخرى من الجنوب الجزائري.

إنّ الأمازيغيات هي اللغات الأم للناطقين بها، تبلغ نسبتهم حوالي **20%** من العدد الإجمالي لسكان الجزائر، أصبحت اللغة الأمازيغية اللغة الوطنية الثانية بعد اللغة العربية في الجزائر ابتداء من سنة2002.[29]

اللهجات العامية الجزائرية:

يتواجد بالجزائر عدد كبير من العاميات الجزائرية، تستعمل كأداة للتواصل اليومي في وسط العائلة ومع الأصدقاء، وفي جميع المناسبات والوضعيات غير الرسمية ، كما أنها أداة مهمة ووسيلة لحمل الثقافة الشعبية من شعر ونثر شعبي..... واللهجات العربية في الجزائر تتوزع على أربع مناطق رئيسية هي: اللهجات العامية في الشرق الجزائري، وعاميات الجزائر الوسطى وضواحيها، وعاميات الغرب الجزائري، إضافة إلى اللهجات العامية بالجنوب.

3- المستوى الوظيفي: أي مستوى استخدام اللغة لأغراض اقتصادية والانفتاح على العالم الخارجي والتبادل والبحث (الفرنسية – الانجليزية)، فبعد تنصيب لجنة الإصلاح التربوي خرجت اللجنة بانطباع مفاده أن سبب تأخر التعليم وعدم مسايرته للركب في الجزائر هو جعل العربية لغة العلم. وعليه فلا بد من اعتماد الفرنسية في العلوم الكونية خاصة، ثم جرّبت الفرنسية كلغة ثانية في المراحل الأولى من التعليم الابتدائي (السنة الثانية) حيث لم يتجاوز الطفل سن الثامنة ثم عدل عن هذا القرار وأخّرت إلى السنة الثالثة، وذلك لعدم نجاح التجربة. والأمر منطقي لكون الطفل لم يتمكن من البديهيات الأولى في لغته من نطق الحروف سليمة وتركيب جمل بسيطة صحيحة، فيزيد جهده في تحمل أعباء لغة أخرى لم يسمعها في بيته، فتتضاعف المعاناة ويحصل الملل والنفور من اللغتين.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مستويات أربعة، ولكل منها نصيبه من الاستعمال في المجتمع. وإنّ لغة المنشأ (الأم) عادة لغة شفاهية، وهي المتمكّنة أكثر في المجتمع، واللغتان (العربية الفصيحة والفرنسية) مكتوبتان، وليس لهما نصيب معتبر في الاستعمال. ومن هنا نجد الفرد الجزائري، المتعلم وغير المتعلم في الغالب، ذا لسان مزدوج، بسبب الاستعمال الدائم للُغة على حساب لغة أخرى، وربما لعامل توفّر لغة ما على أدوات تعبيرية دقيقة، أو على مصطلحات دقيقة تساعد الفرد في تخصصه. وهذا ما خلق ما يسمى بالازدواجية اللغوية**Bilinguisme**، ويمكن أن نطلق عليه ما يسمى بـ **Diglossie** لعامل الاحتكاك اللغوي بين لغتين أو أكثر؛ وذلك عندما يوظف فرد ما

أو جماعة معينّة لسانين مختلفين في آن واحد؛ حيث يمزج بينهما بفعل الاقتراض والتحوّل اللذين يستغلهما في قالب لغة من لغة ما دون شعور منه، بل إنّ تأثير لسان لغة ما يظهر جلياً، وعلى حساب لغة أخرى. ويسمي البعض هذه الظاهرة بالثنائية اللغوية: وهو استعمال الفرد أو الجماعة للغتين بأية درجة من درجات الإتقان، ولأية مهارة من مهارات اللغة ولأي هدف من الأهداف.

إن واقع استعمال اللغة العربية الفصحى في المجتمع الجزائري يبيّن ممارستها في سياقات خاصّة تتّصل بمجالات منها: التربية والتعليم الجامعي والإدارة ووسائل الإعلام المكتوبة والمنطوقة، وتحظى بكونها اللغة الوطنية في هذا المجتمع المتنوع لغويا، ومن ناحية أخرى لا تحظى باستعمال كلّ الفئات رغم ما لها من تأييد ودعم، ولعلّ أسوأ ما يلحق بها هو غيابها على مستوى التداول اليومي وضيق حدود استعمالها الشفوي، وتكاد تكون ظاهرة التواصل بالعربية الفصيحة قليلة جدّا، ذلك أنّنا ما سمعنا مواطنا جزائريا رسميا خارج الرسميات، ولا مواطنا شعبيا خارج المدارس والجامعات تنحلّ عقدة لسانه بجملة عربية واحدة مستقيمة إلاّ نادرا وفلتة مما حافظت عليه البنية السليمة للغة العربية الطبيعية، حتّى أضحى اليوم العجب باديا على ألسنة قلّة ممّا يتحفظون في اللّحن في المحافل والمنتديات والقمم من متحدّث عربي يراقب لسانه من اللّحن.(30)

إن واقع العربية غدا مشكلة كبيرة، ذلك أن هذه اللغة يراد لها أن تكون لغة العرب أينما كانوا، ثم أن تكون في مستويات ودرجات مختلفة ... إنّ من العوائق التي تحول بيننا وبين إدراك شيء من هذا الهدف هو أن هذه العربية كما يقول إبراهيم السامرّائي "ما زلنا نجهلها، يجهلها ابن الشارع كما يجهلها المتعلم المثقف وقد أكون مصيباً لو قلت يجهلها ذوو الاختصاصات المختلفة. وقد أكون غير مفرط لو قلت أن مدرس اللغة العربية وأساتذتها في محنة منها. ذلك أن طائفة كبيرة منهم لا تملك القدرة الوافية الكافية على الإعراب بفصيحة مليحة. ... إن العربية الفصيحة في عصرنا الحديث مشكلة صعبة ذلك بأننا شاعرون أبداً أن في لغتنا حاجة إلى أن تُيَسَّر رسماً وبناءً ونحواً لكي تصبح لغة يباشرها المعربون فيتصرفون بها كلاماً وفكراً وكتابة. ... إننا معاشر العرب نجهل لغتنا ونجد في مباشرتها صعاباً كثيرة فلا يستطيع كثير من جمهرة المختصين أن يملك من هذه العربية القدر الذي يعينه على إيصال العلم والمعرفة إلى غيره بيسر" (31)

انعكاسات التعدد اللغوي في الجزائر:

أ- إذا نظرنا إلى المجتمع الجزائري وجدناه يتكلم خليطا بين الفرنسية والعربية واللهجات المحلية باختلاف مناطق الوطن، فقد تجد في العائلة الواحدة المعَرّب، والمفَرنَس، والمزدوج اللغة، ومن لا يحسن لا الفصحى ولا اللغة الأجنبية أو يجمع قليلا من الاثنين؛ وليس بمقدور أحد أن يعطي نسبة المتكلمين بهذه اللغة أو تلك، و مهما يكن من أمر، فإن اللغة الفرنسية بمعية لهجات محلية كثيرة، تسجل حضورها بقوة في الجزائر. مما يجعل اللغة العربية الفصيحة ومن اتخذها لسانا له محاصرين، وعاجزين عن أداء أبسط وظائفهم المتمثلة في التواصل والتعبير عن رغباتهم وآلامهم، خاصة إذا سلمنا بأن"للغة أثرا فعالا في حياة الفرد والمجتمع، فهي بالنسبة للفرد وسيلة لاتصاله بغيره، وعن طريق اتصاله بغيره يدرك الفرد أغراضه ويحصل على رغباته، كما أنها وسيلته التي يعبر بها عن آماله وآلامه وعواطفه، واللغة تهيّئ للفرد فرصا كثيرة للانتفاع بأوقات فراغه، وذلك عن طريق القراءة و المطالعة والاستمتاع بالمقروء، فيغذي الفرد بذلك عواطفه، وهي أداته التي يقنع بها غيره في مجالات المناظرة والمناقشة وتبادل الرأي، كما أنها أداته التي ينصح بها الآخرين ويرشدهم و ينشر بوساطتها المبادئ بينهم و يؤثر فيهم ..."(32)

هذا الوضع اللغوي ترك وضعا لغويا غير منتظم، فإذا كانت اللغة العربية الفصحى هي لغة التواصل الرسمية في الوثائق والمرافق العمومية، وتزاحمها الفرنسية في المؤسسات الإدارية والإعلام والتعليم العالي، فإن الأمازيغيات، والعاميات العربية هي لغات التواصل اليومي في البيت والشارع، هذا الوضع الواقعي يعيش مفارقات غريبة، إذ لا

علاقة له بالوضع القانوني المنصوص عليه في الدستور والقوانين، فاللغة العربية هي اللغة الرسمية دستوريا بالإضافة إلى الأمازيغية، ولكن حضور الفرنسية يكاد يكون عامّا في الإدارة والاقتصاد والتعليم العالي جزء كبير من الإعلام المكتوب والسمعي البصري، ممّا غدا له تأثير كبير في بناء تفاوتات لغوية واجتماعية.

ب- شكّل هذا التعدد اللغوي عوامل بالغة الخطورة على التعايش الذي ميّز اللغة العربية في اختلاطها بالأمازيغية، وهوما نتج عنه تلوث في البيئة اللغوية الجزائرية عندما طغت فيها اللغة الأجنبية الدخيلة على اللغة المحلية المموّأة عبر الثقافة والمعرفة والسلوكات اللغوية المحلية، وشوشت بالتالي على التعايش الذي كانت تعرفه البيئة اللغوية الجزائرية مجسدا في بيئة الازدواج:**Diglossie** أو بيئة التعدد:**Multilinguisme** بين لغة معيارية رسمية (العربية الفصيحة) ولهجات من نفس النسق اللغوي، رغم أنها تبدو في الظاهر ثنائية لغوية بسيطة تتمثل فقط في اللغة العربية / الأمازيغية واللهجات العامية.

ومن هنا نجد الفرد الجزائري المتعلّم وغير المتعلّم في الغالب، ذا لسان مزدوج، بسبب الاستعمال الدائم للغة على حساب لغة أخرى، وربما لعامل توفّر لغة ما على أدوات تعبيرية دقيقة، أو على مصطلحات دقيقة تساعد الفرد في تخصصه، وهذا ما خلق ما يسمى بالازدواجية اللغوية "**Diglossie** "، والثنائية اللغوية **Bilinguisme** ،هذا الاستعمال غدا له الأثر الكبير في بناء تفاوتات، وساهم في بروز تحاليل كثيرة.

ت- إن تعقد المسألة اللغوية في الجزائر لا يرتبط بالنموذج اللغوي الثلاثي فقط (عربية- أمازيغية -فرنسية) وإنما يرتبط بنماذج سفلية أخرى تؤول إلى الوضع الاعتباري للعاميات المتنوعة، هذه الظاهرة أصبحت من بين المسائل المطروحة في محيط اللغة العربية، ذلك أن وجود لغتين اثنتين أو أكثر لأمة واحدة مشكلة صعبة ومعقدة وفيها من عوائق التحصيل ما تبقى العربية معه في مستوى أضعف، فالجزائري كغيره من العرب يقرأ و يكتب و يؤلف بلغة ويتحادث ويغني بلغة ويَرْوِي النكات ويتشاجر ويداعب أطفاله بلغة ثانية،[33] وليس من شك أن هذه الظاهرة أصبحت من أهم القضايا التي تثير الجدل والمناقشة بين علماء العربية، بشيء كثير من الاهتمام، ومن بين المشاكل التي تؤرق بال المشتغلين باللغة والقائمين على أمرها: «إن مشكلة الازدواج اللغوي بالنسبة للمجتمعات التي تتكلم العربية أبعد مشكلاتها غورا، وأعنفها أثرا، لأنها تصيب هذه الأمم العربية جميعا بظاهرة الازدواج اللغوي التي تجعلها تحيا وتشعر وتتعامل، وتتواصل بلغة مرنة يومية نامية متطورة مطاوعة، ثم هي تتعلم وتتديّن وتحكم بلغة مكتوبة محدودة غير أمية لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيا الأقلام».[34]

ث- جعل الازدواجية في النظام التربوي لا ينتج إلا متعلما ضائعا بين التعريب والفرنسة وينشأ على أفكار مبعثرة بين الثقافتين الوطنية والأجنبية، فاللغة " سواء لقنت باعتبارها لغة وحسب أو وسيلة لتدريس مواد، لابد وأن تحمل ضمنيا مجتمعها الأصلي، ذلك أنها أكثر ارتباطا بالحوامل أو الخلفيات الإيديولوجية والحضارية" ومن ثم فقد يؤدي تعلّمها إلى استلاب ثقافي للمتعلم، ويصبح ظاهرة اجتماعية وثقافية بين أفراد المجتمع.[35]

لقد بيّنت التجارب أنّ من بين الصعوبات التي تعترض التلميذ خلال عملية التعلّم تزداد بالضرورة، إذا كان يجب عليه أن يكتسب المعارف والعلوم بلغة أجنبية لا يتقنها أحسن الإتقان، ممّا يؤدّي إلى فشل مدرسي، ولئن كانت اللغة الثانية تنتمي إلى ثقافة مغايرة، فان الصعوبات تزداد من منطلق أنّ التلميذ لا يتعامل فقط مع لغة أجنبية، إنّما يتعامل أيضا مع مصطلحات وبنى للتعبير والتفسير جديدة تماما بالنسبة إليه.[36]

إن هذا الازدواج لم ينتج لنا إلا جيلا ضعيفا مهزوزا على مستوى اللغتين، فالطالب اليوم في الثانوية والجامعة لا يمكنه الحديث باسترسال باللغة العربية، أما الفرنسية فهي غائبة عن لسانه ويده إلا كلمات ألفها وسمعها و الأغلب ممن يستعملونها لا يحسنون كتابتها .لقد أصبحت العربية خليطا من الألفاظ العامية و الفرنسية على جميع المستويات هذه الظاهرة متفشّية ومتغلغلة في المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته، فالخلط بين العربية والفرنسية في مختلف

مجالات التّعبير دون أن يتقن الكثيرون منهم اللغة الفرنسية. وهو ما يؤدي إلى تشويش لغة النّاشئة وتقديم صورة منحطّة عن لغتهم العربية فيحملهم ذلك على ازدرائها والزّهد فيها؛ وهو الشيء الذي ظهرت بوادره في إنتاج جيل ضعيف في اللغة العربية لا يقدر أن يبدع ولا أن يفكّر بها. هذا الوضع الذي قد يؤدي مستقبلا إلى مسخ اللغة والبعد بها عن الأصل أو تحويلها إلى لغة هامشيّة فاقدة لفعاليتها.(37)

ج- لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في أية لغة أنه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي. وإن تكن الازدواجية، وبشكل موضوعي، أداة بارعة للضرورة، فإنها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية التعليم والاتصالات وأجهزة الإعلام لعائق بالإضافة إلى ذلك، إذا اعتبرنا أنّ وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب؛ وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية، فإن وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محدِّدة، بل معقدة لقوتها التعبيرية. الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي. ويبيّن أنيس فريحة انعكاسات وأثر الازدواجية على حياة الفرد فيما يلي:

- انتقال العربي من لغة سيالة سلسة مرنة غير معربة،من لغة لا تحتاج إلى عناء أو بذل جهود إلى لغة غريبة عن حياته اليومية صعبة معقدة معربة تخضع لقوالب معينة،أمر يعوق الفكر.
- أما آثارها في التربية فأنها تتطلب زمنا أطول للانتقال من العامية إلى الفصحى، وهو انتقال من لغة إلى لغة أخرى مغايرة لها، وتولد الإعراض عن القراءة وكساد الأدب وطغيان القالب على المعنى وصعوبة كتب التدريس.
- أما آثار الازدواجية في تكوين الشخصية فتتلخص في لامبالاة العرب بمراقبة لغة الأولاد واتسامهم بالمقارنة مع من هم في سنهم من الأولاد الغربيين، بالعجز الظاهر في حسن التعبير .
- أما تأثيرها في الأخلاق فيتمثل في أن القتل وكثرة الجرائم التي تسمى في الشرق دفاعا عن العرض والشرف ناجم عن آثار كلمات لها فعل السحر. وأخيرا يبيّن أثر ازدواج اللغة في الفنون الجميلة ليستنتج أن العرب قد حرِموا من مشاهدة المسرح والاستماع به نتيجة الازدواجية.(38)

خاتمة

يتّضح مما تقدم أن الوضع اللغوي بالجزائر يكتسي طابع التعدد، الذي غدا له الأثر الكبير في بناء تفاوتات لغوية و اجتماعية، وأنّ هذا التعدد اللغوي في الجزائر كما في باقي البلدان العربية أضحى مسألة معقّدة، فنحن في حاجة ماسّة إلى جهود لتنظيم هذا التعدد وترتيب الشأن اللغوي، من أجل التحكّم في نتائجه، والمهمّة لا يتحملها اللساني لوحده، كما يستعصي على السياسي تدبيرها لوحده، بل تعود مسألة القرار فيها إلى سياسة التخطيط اللغوي التي تقع مسؤولية إعدادها وتنفيذها على عاتق الدولة ومؤسساتها.

من أجل ذلك أصبح التخطيط اللغوي ضروريا على المستوى الوطني بهدف تكوين اتجاه عام يتمثل في سياسة لغوية واضحة الملامح يشارك في تنفيذها المعنيون بالأمر، نظرا لأنّ التخطيط اللغوي يستجيب لاحتياجات ذات طبيعة سياسية واجتماعية واقتصادية، فإن عمليته ينبغي أن تضمّ في مراحلها المختلفة مختصّين في العلوم السياسية والاقتصادية وعلم اللغة الاجتماعي واللسانيات وغيرهم من الحاسوبيين والإحصائيين، كما يشارك في تنفيذ الخطّة اللغوية التربويون والإعلاميون والإداريون وغيرهم، فالمجامع اللغوية ومكاتب التعريب، وبنوك المصطلحات والكلمات، ومشاريع الترجمة الآلية بإمكانها أن تساعد الحكومات وأن تدعمها في مساعيها لوضع سياسة لغوية من شأنها أن ترتب المشهد اللغوي، وتضع سياسة لغوية ناجعة.

الهوامش

1– ينظر: نحو عربية ميسرة ، أنيس فريحة، بيروت **1955**، ص: **16** وما بعدها.

2 – اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب للنشر و التوزيع، ب.ط، ب.ت، **ص96**.

3– ينظر: ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء و المحدثين، البدراوي زهران، دار المعارف، القاهرة، ط**2**، **1993** ص: **313**.

4– في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مطبعة أبناء وهبة حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، **2003ص:15**.

5– العربية و علم اللغة الحديث، محمد داود، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، **2001م** ص **64**.

6– انظر المرجع نفسه، ص **66**.

7 – ينظر: فقه اللغة العربية و خصائصها، إميل بديع يعقوب، ص 145،**144**، فقد جمع عدة مصطلحات أطلقت على هذا المستوى اللغوي.

8– مدخل إلى علم اللغة ـ المجالات والاتجاهات، محمود فهمي حجازي، دار قباء الحديثة للطباعة و النشر والتوزيع ، القاهرة، ط**4**، **2007م** ، ص: **18**.

9– الإحكام في أصول الأحكام ج**1**، ابن حزم،تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، **1980**، **ص55–56**.

10 ينظر: مقال الصراع اللغوي في الجزائر: تأزم هوية، عمر ديدوح، مجلة المعرفة العدد **176** **نوفمبر2009**/ ذوالقعدة **1430**، وزارة التربية والتعليم المملكة العربية السعودية.

11 -Krumbacher, Karl. (1902) Das Problem der Modern Griechishen Schriftsprache. Munich.

12- Marcais, William. (1930) "La Diglossie Arabe" L'Enseignement Public. 97.40

13– علم اللغة وصناعة المعاجم، علي القاسمي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط**3**، **2004**، ص: **40**

14 - « Le bilinguisme est la situation linguistique dans laquelle les sujets parlants sont conduits a utiliser alternativement, selon les milieux ou les situations deux langues différents, c'est le cas le plus courant du plurilinguisme » Jean Dubois & autres :Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage,Larousse-HER 1999 .PARIS , P66/Bordas.

15 - Malmberg, B. 1979. Le Langage signe de l'humain, Paris, Picard,p 169.

16– قضايا لسانية وحضارية، منذر عيّاشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق،ط1، **1991**، ص: **51**

17 – نفسه، ص ن.

18- Jean Dubois & Al : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, P65.

19 – قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، ميشال زكريا، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط**1**، **1993**، **ص35**

20- Vincent Monteil, L'arabe moderne, Librairie C.Kinckseick, Paris, 1960, p.69.

21– معجم اللسانيات الحديثة انكليزي– عربي، سامي عياد حنا و آخرون، مكتبة لبنان،**1997**.د ط، ص: **39**.

22– علم اللغة الاجتماعي– مدخل– كمال بشر، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، ط3، **1997**، ص **186**.

23– اللغة الفصحى والعامية، محمد عبد الله عطوات، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، **1424هـ 2003** م، **ص60**.

24– اللغة العربية بين سوء الوهم و سوء الفهم، كمال بشر ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ب.ط، **1999**، ص: **244**.

25– ينظر المستوى اللغوي للفصحى و اللهجات و للنثر و للشعر، محمد عيد، دار الثقافة العربية للطباعة، ص: **89**.

26– ينظر : التعريب بين المبدأ و التطبيق : أحمد بن نعمان، شركة دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر والتوزيع، الجزائر، ط **2**، **1998** ص: **142**.

27– ينظر: دراسات في اللغة العربية و طرائق تعليمها، أنطوان صياح ص: **6**.

28– فقه اللغة العربية و خصائصها ، إميل بديع يعقوب، ط**1** ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، **1985م** ، ص **144**

29– بموجب القانون **03/02** المؤرخ في **10** أفريل **2002** في الباب الأوّل، الفصل الأوّل، المادة الثالثة مكرر من الدستور الجزائري" تمازيغت هي كذلك لغة وطنية تعمل الدولة لترقيتها وتطورها بكلّ تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني"

30– في رحاب اللغة العربية، عبد الجليل مرتاض، ديوان مطبوعات الجامعية، الجزائر،**2004**، ص: **47**.

31– تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، إبراهيم السامرائي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **1973م**.ص:**3**.

32– في فقه اللغة و قضايا العربية، سميح أبو مغلي، ط**1**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عان، الأردن، **1987م**، ص **256**

33–الرؤية المعاصرة في الأدب و النقد، زكي العشماوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ب.ط، ب.ت،**ص124**

34– الفصحى واللهجات: قراءة جديدة وملاحظات، محمود عبد المولى؛ مقال منشور في: مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب الرباط المملكة المغربية، المجلد **17**، ج**1**، **1399هـ– 1979م**، ص: **87**.

35–في المسألة التربوية نحو منظور سوسيولوجي منفتح، مصطفى محسن، ط**2**، المركز الثقافي العربيبيروت**2002**، ص **76**

36– قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، ميشال زكريا، **1993**، **ص51**

37– نظرية اللغة الثالثة،أحمد محمد المعتوق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**5**، **2005**،ص: **22**.

38–. في اللغة العربية وبعض مشكلاتها،أنيس فريحه. بيروت: دار النهار،ص:**19**